

تمهيد

يلغي غياب معيار الذهب كلَّ احتمال لحماية المدخرات من المصادرة بفعل التضخم، وتتعدم طرق حفظ القيمة، وفي حال وجود طريقة ما سترفع الحكومة الصفة القانونية عنها كما حصل في حالة الذهب؛ فعلى سبيل المثال: إذا قرر كلُّ شخص تحويل ودائعه المصرفية جميعها إلى فضة أو نحاس أو أي مادة أخرى، ورفض بعدها قبول (شيكات) ثمنًا للسلع، فستفقد الودائع المصرفية قيمتها الشرائية، وسيصبح الرصيد المصرفي المستحدث من قبل الحكومة عديم القيمة عند المطالبة بتعويض عن السلع.

تتطلب السياسة المالية لدولة الرفاهة ألا يكون هناك طريقة يحمي بها أصحاب الثروات ثرواتهم، (...) وهذا سرُّ قديم يفضح خلفية الخطب الحماسية المعادية للذهب من قبل مؤيدي السيطرة الاقتصادية للدولة.

إنَّ العجز في الإنفاق هو ببساطة مجرد مخطط لمصادرة الثروة، ويواجه الذهب هذه العملية الغادرة ويعترض سبيلها ويقف حاميًا لحقوق الملكية ومدافعًا عنها.

إنَّ فهم المرء لما سبق، يكشف له سبب عداء مؤيدي السيطرة الاقتصادية للدولة ضد معيار الذهب.

آلان جرينسبان

الرئيس السابق للاحتياطي الفيدرالي

(Federal, 1966 Reserve)

مقدمة

قبل عام واحد فقط على انهيار ليمان براذرز (Lehman Brothers) طُبع كتابي الأول في هولندا تحت عنوان إذا انهار الدولار (Als de dollar valt – If the Dollar Collapses, 2007). وتوصلت بعد دراسة النظام المالي على مدى أكثر من عشرة أعوام إلى خلاصة مفادها أن انهيار النظام المالي العالمي المهتز وديونه المتراكمة مسألة وقت لا أكثر، وبعد أن حدث هذا الانهيار للبيت الورقي بعام واحد فقط تغيرت حياتي جوهرياً؛ ففي غضون مدة قصيرة من الزمن أصبحتُ شخصاً معروفاً في هولندا؛ لذلك قررت ترك عملي بوصفي معلق سوق للقناة التجارية (RTLZ)، والتركيز على الفرص التجارية الناشئة من الواقع الاقتصادي الجديد.

أدركتُ أن هذا الواقع الجديد سيكون مغرياً للمستثمرين للنظر جدياً في الاستثمار في الأصول الثابتة بخاصة الذهب والفضة، وهذا ليس بجديد، فالسوابق التاريخية موجودة في كلِّ أزمة على مدى السنوات الثلاث مئة الماضية؛ وبالتحلي بهذا الإدراك انطلقت بمتجر على شبكة (الإنترنت) لسبائك الذهب والفضة (AmsterdamGold.com)، وأنشأتُ صندوقاً للسلع الأساسية باسم (Commodity Discovery Fund).

وقد بيع (AmsterdamGold) إلى الشركة المسجّلة (Value8) في صيف (2011م) بعد أن حققت مبيعات سنوية قاربت (100) مليون يورو، وفي المدة ذاتها أصبحت ثلاثة كتب إضافية من كتيبي الأكثر مبيعاً، ولم يكن أيٌّ منها قد تُرجم إلى الإنجليزية قط.

يجمع هذا الكتاب المعلومات من الكتب السابقة جميعها مع فصل إضافي عن إعادة الترتيب الكبيرة للنظام المالي الحالي في أنحاء العالم جميعها، ويروي هذا الكتاب قصة عالم المال والذهب المخفي غالباً، وآمل أن يحقق الفائزة المرجوة لأوسع جمهور في العالم.

قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، كانت معظم العملات الرئيسية مدعومةً بالذهب، وكان ذلك عصر معيار الذهب؛ حيث كان عرض المال مقيداً بنمو احتياطي الذهب، لكن حاجة الدول الأوروبية المتزايدة إلى تمويل التكاليف الباهظة للحرب دفعت بها إلى التخلي عن معيار الذهب في العقد الثاني من القرن العشرين؛ لكي يتسنى لها طباعة مزيد من المال، واستبدلت تلك الدول بالإضافة إلى معظم الدول الأخرى معيار الذهب بنظام النقد الورقي مع أنّ النقد الفضي كان لا يزال في طور التداول في معظم الدول الأوروبية، واستمر تداوله حتى ثمانينيات القرن الماضي.

وخلافاً للنقد الورقي، حافظ الذهب دوماً على قوته الشرائية؛ فعملة رومانية ذهبية قديمة تزن ثمانية غرامات لا تزال تشتري لك مئات عدّة من اللترات من العصير الرخيص، تماماً كما كان الأمر

عليه قبل (2,000) عام؛ وهذا هو سبب استخدام الذهب مرّة تلو مرّة لتحقيق الاستقرار في أنظمة النقود الورقية في أوقات إعادة ترتيب النقد في الماضي. إنَّ سعر الذهب أشبه بالبارومتر، وارتفاع سعره هو بمثابة تحذير للمستثمرين بوجود خطأ ما في عملتهم، وغالبًا ما يكون هذا الخطأ طباعة المصارف (البنوك) لكثير من المال؛ ومنذ أن فصلت الولايات المتحدة الدولار عن معيار الذهب في عام (1971م) أصبح الذهب العدو المالي الأوَّل لوول ستريت والبيت الأبيض؛ لأنَّ سعر الذهب مؤشر يقلقهم، حيث يشير سعره إلى انخفاض قيمة الدولار، وهذا بالنسبة إليهم أشبه بطائر الكناري في مناجم الفحم⁽¹⁾.

يُقدِّم هذا الكتاب الأدلة المطلوبة كافة الداعمة للدعاء القائل بوجود حرب سرّية على الذهب (الفصل الرابع)؛ تخوض هذه الحرب الولايات المتحدة ومحافظو مصارف مركزية آخرون منذ ستينيات القرن الماضي على الأقل، بدأ ذلك عندما تعرّض نظام الدولار للضغط لأوَّل مرّة منذ تأسيسه في نهاية الحرب العالمية الثانية، وفي وقتنا الحاضر لم يعد هناك من عملة آمنة حتى الفرنك السويسري، فقد أصدر المصرف المركزي السويسري في عام (2012م) قرارًا

(1) كان عمال مناجم الفحم يأخذون طير كناري بقفص في أثناء تقدمهم في المنجم، فإن وجدت غازات سامة مات الطير فورًا قبل أن تؤثر الغازات في الإنسان، وبذلك يكون الطير بمثابة إنذار باكراً للعمال فيخرجون من المكان. (المترجم).

يقضي بربط الفرنك باليورو؛ لكبح جماح مزيد من الارتفاع في قيمته، ما يشكل ضررًا على قطاع السياحة والصادرات السويسرية.

هذا مجرد مثال واحد عن حروب العملة المندلعة منذ انهيار مصرف ليمان براذرز عام (2008م)، ومنذ ذلك الوقت يحاول مزيد من البلدان تخفيض قيم عملاتها لدعم صادراتها.

وبغرض مكافحة التداعيات الاقتصادية الناجمة عن أزمة الائتمان، أطلقت البلدان لعجزها المالي العنان ليزداد بصورة دراماتيكية، ولدفع قيمة الفواتير المترتبة عليها ترتب على حكومات تلك البلدان بيع كميات هائلة من السندات، لكن أعدادًا متزايدة من المستثمرين توقفت عن شراء هذه السندات الحكومية، فما كان من المصارف الحكومية إلا اللجوء إلى الطريقة الوحيدة بتشغيل مطابح المال (الرقمية)، وبهذا الأسلوب تم شراء الديون المتراكمة والسندات الحكومية بما مجموعه (10) ترليون دولار (10,000 مليار دولار)، وذلك في أنحاء العالم جميعها، وفي الحقبة الممتدة من عام (2008م) إلى عام (2013م).

يصف الاقتصاديون هذه العملية بتسييل الديون من قبل المصارف المركزية، وتشير الكتب الاقتصادية المتخصصة إلى هذا الإجراء باسم (الخيار النووي) الذي يجب اللجوء إليه عندما لا تتوافر أي وسيلة أخرى للتمويل، فمن السهل البدء بهذه العملية لكن من المستحيل إيقافها.

لا تزال الجامعات في أنحاء العالم تروج لفكر مدرسة شيكاغو للاقتصاد، وترتكز عقيدة هذه المدرسة على إنتاج نقود ورقية من قبل المصارف المركزية بالتعاون مع المصارف الخاصة، وما زال طلابنا حتى يومنا هذا يدرسون مثل هذه الفكرة في كتب اقتصادية تقوم على نماذج أسواق منتهية الصلاحية، وهي نماذج كانت فاعلة قبل الأزمة؛ ربما هذا هو سبب عدم وجود فهم كامل لدور المال في اقتصادنا الحالي من قبل كثير من الاقتصاديين والصحافيين والمديرين التجاريين التنفيذيين.

صحيح أنني لا أعاني إعاقة كوني لا أحمل درجة بكالوريوس في الاقتصاد، لكنني أعتمد على الفهم السليم لمبادئ المال، وقد دأبت على دراسة كتب المال والأزمات الاقتصادية التي سطرها المؤرخون، وعليه يمكنني القول إن الأزمة الحالية - كان يمكن توقعها بمراجعة لـ (6,000) عامًا من التاريخ الموثق للمال - تتناقض مع المذهب الكينزي⁽¹⁾ (Keynesian doctrine) لإيجاد المال من الفراغ، ويكفي أن نعلم أن الأنظمة النقدية الورقية قد وُضعت تحت الاختبار لأكثر من (200) مرة عبر التاريخ، وقد فشلت جميعها دونما استثناء في نهاية المطاف؛ لذلك يجب النظر إلى احتمال فشل النظام النقدي الحالي بوصفه حتمية إحصائية أكثر منه غير مرجح الحدوث نظريًا.

(1) المذهب الكينزي: مدرسة في الاقتصاد تقوم على الليبرالية الاجتماعية. (المترجم).

سيدرك السياسيون عند الوصول إلى هوةٍ ما أنّ تغييراً رئيساً كبيراً - أطلقت عليه اسم إعادة الترتيب الكبيرة - هو وحده ما ينقذ النظام النقدي العالمي، ولا شكّ في أنّهم سيصلون إلى هذا الإدراك عندما يقفون مكتوفي الأيدي حيال إعادة تمويل جبال ديونهم.

يشرح هذا الكتاب السبب الحقيقي للقول بأنّ التراكم المتزايد للديون في حساب الميزانيات العمومية للمصارف المركزية ليس بوسيلة مستدامة تساعد اقتصاداتنا على التعافي؛ على أنّ صناع القرار سيختارون دوماً دفع إعلان الموت المحتمل لهذا النمط الاقتصادي إلى وقت لاحق بدلاً من الإقرار باقتراب ساعته، وهذا دليل على قصور نظامنا الاقتصادي الذي يركّز على علاج الأعراض وتجاهل المرض الفعلي، إنّ هذا النظام أشبه بشخص مريض جدّاً لا يسعه سوى الأمل بوضع سنوات أخرى من البقاء حيّاً بالاعتماد الكلي على أقوى الأدوية التي تحافظ على سير عملياته الحيوية بعض الوقت، ولن يعود هذا المريض قوياً كما كان قبل المرض بأي حال من الأحوال، لكن الزيارات المكثفة للمشافي والصيديات قد تؤجل الأمر المحتوم الذي لا سبيل لاجتبابه.

إنّ ما يقوم به محافظو المصارف المركزية والسياسيون لا يتعدى كونه شراءً للوقت على أمل إطالة المرحلة النهائية من لعبة نظامنا المالي العالمي الحالي، لكن هذا لا ينفي أنّ هناك من بدؤوا سرّياً يستعدون لإعادة الترتيب، وهو المطلوب لنقل النظام اللاحق المالي إلى المستوى اللاحق؛ وقد جرت إعادة ترتيب مماثلة عند بدء التعامل بالدولار عام (1944م)، وفي اعتقادي أنّه وقبل حلول عام (2020م)

سيحتاج النظام المالي العالمي إلى إعادة إقلاع مع نموذج جديد يكون فيه الذهب اللاعب الأبرز، وسيفقد الدولار مكانته بوصفه عملة احتياطية فريدة وحصرية، وستبرز دول صاعدة مثل الصين ويكون لها دور أقوى بكثير.

أود اختتام مقدمتي هذه بتوجيه الشكر لمنشورات جامعة أمستردام (AUP) ومنشورات جامعة شيكاغو؛ لنشرهما هذا الكتاب على الرغم من أنه ينتقد بشدة مدرسة شيكاغو للاقتصاد.

شكر خاص إلى المحررة المكلفة في منشورات جامعة أمستردام إيبسي روو (Ebisse Rouw) التي بدأت كل شيء، وأود أن أثنى على مساعدي في البحث ديك فان أنتويرب أون كيفن بينينغ (Dick van Antwerpen en Kevin Benning) الذي ساعدني في الحصول على تفاصيل مذهلة، وقامت المحررة جيويما ماريني (Gioia Marini) بمجهود عظيم في تحرير المخطوطة.

ويُظهر تصميم الغلاف الفنان الحقيقي رون فان رون (Ron van Roon)، وأشكر بصورة خاصة زوجتي بريختي رود (Brechtje Rood) التي كانت مسؤولة عن الرسوم البيانية المرفقة بمعلومات في هذا الكتاب، وهي من ساندتني بأقصى طاقتها في هذا العام المجدد، وأخيراً أشركم لتكريسكم جزءاً من وقتكم الثمين لقراءة الكتاب.

ويليام ميدلنكوب، أمستردام، كانون الثاني/يناير (2014م).